

الإبداع النسوي في فن اللغز الشعبي الشعري

بمنطقة القبائل الكبرى

منطقة وافية نموذجاً

"دراسة اثنوغرافية تحليلية"

طبركان سلوى

مولود معمري، تيزي وزو

تمهيد: تزخر منطقة القبائل بموروث شعبي ضخم، وثقافة شفوية راقية أفرزتها التراكمات الزمنية المتلاحقة والحقب التاريخية المتعاقبة، فكانت نتاجاً حتمياً لجهود جماعية وتجارب مشتركة، لذوي الفكر ومدركي فن القول. ويعد فن الإلغاز بمختلف مواضيعه وأنواعه، النثرية منها والشعرية بمنطقة القبائل، واحداً من أبرز الفنون الشعبية، الذي استطاعت من خلاله المرأة القبائلية، وعبر فترات زمنية مختلفة، أن تعبر عن قيم إنسانية وتاريخية اجتماعية ونفسية، استمدت مادتها الأساس من عمق واقع الحياة اليومية. فاللغز الشعري على سبيل المثال يعتبر كنزاً من الكنوز الأدبية والثقافية أبدعت في صياغته العبقرية النسوية، فجمع بين غموض اللغز وبديع الشعر وكان بالتالي خير زاد، في مدخرات الأجداد، يحتاجه من رغب أصيل القول من أبناء وأحفاد.

مفهوم اللغز وتسمياته بمنطقة القبائل: يمثل اللغز شكلاً أدبياً شعبياً عرفته مختلف الشعوب منذ الأزل، كمعرفتهم للأسطورة والحكاية الخرافية وغيرهما. وقد عرفته نبيلة إبراهيم على أنه "استعارة نشأت نتيجة التقدم العقلي في إدراك الترابط وأوجه الشبه والاختلاف من خلال المقارنة، كما يحتوي اللغز فضلاً عن ذلك على عنصر الفكاهة الناتجة عن احتواء اللغز لعنصر المفاجأة"¹. ويحمل اللغز الشعبي بمنطقة القبائل تسميات مختلفة نذكر منها:

"ثمسعراقت" ج. ثمسعراق، كما في منطقة واذية، وهي تسمية مأخوذة من الفعل "إسعرق" الذي يعني ضياع الشيء أو إخفائه، كأن نقول عن شخص يتهرب من الجواب (إسعراق لهذور)، وعمن يجعلك في الخطأ (إسعرقي إبردان).² وإلى جانب هذه التسمية، هناك تسميات عدة، تختلف من منطقة قبائلية إلى أخرى مثل: ثمسفرتس، ثقنوزث، ثمسبيث، ثمسعوقت، ثمقلقت... إلخ³ فاللغز عموماً وفي منطقة الدراسة خصوصاً، يقوم على الاستعارات والجمع بين المتناقضات، وأهم ميزة له هي الغموض والتعقيدات، وهو يحقق وظائف جمّة أهمها الاستمتاع واختبار المستويات. وهو من حيث الشكل الأدبي، كما أسلفنا ذكراً، على نوعين: نثر وشعر، فالشعري منه هو ما جاء في أبيات أو شبه أبيات موزونة ومقفاة، تنهل من ينابيع غموض اللفظ وروعة اللحن، لتنتج بها المرأة القبائلية مزيجاً فنياً يجمع بين اللغز والشعر، هذه نماذج منها:

إقن، إثران، أقر	{	أرزمريغ أثبطنغ	1- أسعغ أحايك
		أرزمريغ أثحسبغ	أسعغ إذرمن
		أرزمريغ أثتشغ	أسعغ أيبنان

الترجمة:

السماء، النجوم والقمر	{	لا أستطيع لباسه	عندي رداء
		لا أستطيع حسابه	وعندي مال
		لا أستطيع أكله	وعندي موز

أضو، أروعوذ، أقفور	{	سنفس يتشور	2- أثي بوقنور
		أند إعد يقور	ذدنيث مشهور
		يو ايمطون يسيخست	يو أدرز يمقرث

تر:

أنى صاحب الطربوش وهو بالهواء مملوء
هو في الدنيا مشهور وأينما حل، خلف جفاف
صاحب الاصوات استقبله وصاحب الدموع بلله

3- إشب أزقر أريتسوي أزقل
أركرز إقر ذقس أرنزل
ثمدت ماريكر أين يزن أثيفل

تر:

يشبه الثور ولا يحمل المحراث
لا يحرث الأرض ولسنا فيه نذبح
في الليل لما ينهض كل ما غرس يقلع
4- يوغيد بابا أحام إقشبح آينينيس
أتسحبض إثران ذقن أرثتسبض ثبوريس

تر:

اشترى لي أبي دار ما أجمل بناءه
تحسب النجوم في السماء ولا تحسب أبوابه
5- إسع أعبوض أريسع إجوغان
إسع أقموش أريسع أقلان
إسع إفسن أريسع إضوذان

تر:

له بطن وليس له أمعاء
وله فم وليس له أسنان
وله أيد وليس له أصابع
5 جرة الزيت*

تعد هذه الأمثلة إذن أنموذجا من بين نماذج كثيرة، كانت ترددها بصفة كبيرة، النسوة القبائليات، في فترات زمنية وأمكنة محددة، تزامنت خاصة وفترة الاحتلال الفرنسي للمنطقة. فبينما كان الرجل في الجبل يكافح

ويجاهد، كانت المرأة في البيت تربي وتعلم، تسلي أبناءها وتهذب، وكان هذا الفن إحدى وسائلها المعتمدة في تحقيق أهدافها، في عصر غابت فيه الإمكانيات وساد فيه الجوع والجهل.

الدراسة التحليلية للنماذج:

1- من الناحية الشكلية واللغوية والفنية: جاءت هذه الألفاظ الشعبية القبائلية في شكل أبيات شعرية ذات خصائص لغوية وفنية، نلخص أهمها فيما يلي:

أ- الجمل القصيرة: وهي أهم ميزة لجنس اللغز، حيث وردت هذه النماذج في جمل قصيرة وموجزة، خفيفة على اللسان، سهلة الإلقاء والمداولة وذات ألفاظ وعبارات واضحة، تجمع معان عدة، مثل:

أسعغ أحايك أرزمرغ أثيطنغ (عندي رداء لا أستطيع لباسه) وكذلك
إشب أزقر أريتسوي أزقل (يشبه الثور ولا يحمل المحراث) ...الخ.

ب- المحسنات البديعية: ونجد منها الطباق بين كلمتي: إسع، اريسع (يملك ولا يملك)، وبين أتسحبسبض، أرثحتسببض (تسحب ولا تحسب) وهو طباق السلب.

كما ورد التصريع في البيت الأول من المثال الثاني بين كلمتي أقتور يتشور الذي رصع البيت بنغم ملحوظ.

ج- الصور البيانية: وهي كثيرة ننتقي منها، التشبيه في المثال الثالث
إشب أزقر أريتسوي أزقل (يشبه الثور ولا يحمل المحراث)، حيث شبه الخنزير بثور (مع أن الخنزير لا يحمل المحراث) وذلك في الضخامة والقوة، وهو تشبيه بسيط.

كما وردت استعارات جمّة نذكر منها المثال التالي:

إسع أقموش أريسع أقلان (له فم وليس له أسنان)، حيث شبهت جرة الزيت بإنسان له فم، فذكر المشبه، حذف المشبه به وترك لازما من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

د- الموسيقى والإيقاع: تمتاز هذه الأمثلة بجرس موسيقي عذب وإيقاع صوتي جذاب أنتجه تناسق الكلمات فيما بينها وأفرزه حرف الروي في كل مقطوعة، خاصة فيما اتفق فيها الحرف الأخير من صدر كل بيت مع الذي سبقه ولحقه من البيت الآخر، والشئ نفسه بالنسبة للعجز، ونحو ذلك المثال التالي:

إشــــب أزقر أريتسوي أزقل

أركــــرز إقر ذقس أرزل

ثمدت ماريكر أيــــن يزن أثفل (ينظر المثال 3).

وإذا ما نظرنا في اللغة التي نتجت عن تضافر هذه العوامل، فإننا نجدها تزواج بين لغة اللغز والشعر، تجمع بين عقدة الرمز وحلاوة التعبير، أبدعتها الفئة الحكيمة من النساء، لقول ما في الذهن ومكنونات القلب.

2- من الناحية المضمونية والمعرفية والثقافية: إن المتعمق في مضمون هذه العينة البسيطة من الألفاظ الشعرية بمنطقة واذبية، يدرك بأن الكل يجد بغيته ويلقى ضالته فيها. فالعالم اللغوي مثلا والمتخصص في اللسانيات يعثر فيها على خزان من المفردات اللغوية، التي تعكس مقدرة الذهنية النسوية في صنع جميل اللفظ وبلغ العبارة، في شكل قوالب تجمع بين عدة فنون شعبية، وبألفاظ هي من قاموس الحياة اليومية، ولكن بصيغة سمتها الذكاء والحنكة، رغم ما يميز صاحبها من أمية.

نذكر من ذلك لفظة: أحايك، بوأدرز، بوأيمطون.....الخ.

كما أن عالم الاقتصاد يطلع من خلالها على أسرار وأنماط الحياة الاقتصادية السائدة في ذلك المجتمع، كممارسة الزراعة وخدمة الأرض بوسائل

تقليدية بسيطة، وهو ما نفهمه من كلمة أزقر (الثور)، وكلمة أزقل (المحراث) وغيرهما.

وبالنسبة للمؤرخ يستتبط أفكار المجتمع القبائلي وتحولاته في عصر من العصور وتطوره الذهني والمادي على مر الحقب التاريخية، إذ نجد مفردات متعلقة بوسائل وأدوات، إن لم نقل إندثرث في وقتنا الحالي: كلفظة أيدذ (جرة الزيت) ولفظة أحايك (الرداء التقليدي النسوي).... الخ.

وقل مثل ذلك عن الجغرافيا وعالم النفس والاجتماع وهلم جرا. وهكذا نقول إن الدارس لهذا الإرث الثقافى، يكتشف مدى ذكاء العقلية الشعبية النسوية، وعمقها وقدرتها على ربط الصلة بين اللفظ الظاهر المنطوق والمعنى الباطن المقصود.

نصل في ختام هذا العرض إلى القول أن هذه الألفاظ الشعبية الشعرية، التي أبدعتها المرأة القبائلية، عبر مختلف الحقب التاريخية، تمثل إحدى صور العبقرية النسوية في مجال الفنون القولية، فكيف لا وإبداعها أتى فياضا بالمجاز والاستعارات، زاخرا بالمعاني والدلالات، يعلم الفرد فن القول واختيار العبارات فتشكل بذلك زادا ثريا في بنك الثقافات، يستحق بالفعل أن يكون محورا للنقاشات.

الإحالات:

- 1-نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة /مصر، ط 3، 1981، ص 191.
- 2-ينظر: عبد الحميد بورايو، القصص والتاريخ، دار CNRPAH، الجزائر، العدد الثاني 2005، ص 129.
- 3- Voir : Frenand Bentolila, Devinettes Berbères, édition fleuve et flamme Lille, 1986, p.p. 361. 362.
- 4-الراوية: جوهر زداك، 68 سنة، أمية ومجاهدة، قرية أيت عبد المؤمن، واضية، يوم 2010/03/30.
- 5-الراوية: حبيلة. ز، 72 سنة، أمية ومجاهدة، قرية أيت عبد المؤمن، واضية، يوم 2010/03/02.

* - الجرة التي توضع فيها الزيت قديما وتصنع من جلد النيس.

